الفصل السابع عشر

مكان رائع

كل الذين لم يروا القسطنطينية من قبل، يحدقون بها، فاغري الأفواه لدهشتهم، ذلك أنهم لم يتصوروا من قبل وجود مكان رائع كهذا في الدنيا كلها ـ ولهارديمون ـ فتح القسطنطينة.

كانت الحملة الصليبية الرابعة من بنات أفكار البابا أنيوسنت الثالث الذي تقلد منصب البابوية سنة 1198 وهو في السابعة والثلاثين، وكان ابناً لستراسيموندو دي كونتي، كونت منطقة سجني، أما أمه فمن أفراد أسرة رومانية عريقة دعيت سكوتي، لذا أتي معه بميزات المحتد النبيل، ولم يكن ذلك كل شيء فقد كان لديه فكر لامع وموهبة في الفكر السياسي والمبدأ السامي في واجبه، وكان طموحه الأكبر جعل العالم أجمع يعترف بسيادة كنيسة روما، ليس في القضايا الدينية فحسب بل في الشؤون الدنيوية، كما كتب في ذلك إلى بطريرك القسطنطينية: «إن الرب ترك لبطرس السيطرة ليس فقط على الكنيسة بل على أنحاء العالم كله»، وكيلا يقع الملوك أنفسهم تحت ضلال تفوق منصبه على مناصبهم، كتب إلى ملك إنكلترا جون: إن الرب قد وضع «شخصاً واحداً فوق الجميع وعينه نائباً عنه في الأرض، قاصداً نفسه، بينما ذكّر فيليب أوغسطس صاحب فرنسا أنه «بالنسبة للأمراء أعطيت القوة في الأرض، لكنه بالنسبة للقساوسة فإنها تعزى إلى السماء، أما هو نفسه فنائب عن الذي له الأرض وما يملؤها، ومنه العالم كله وجميع ما يقطنه»، وبالنسبة

للبابا شخصياً، كان رجلاً صغيراً وسيم المنظر رغم وضع عينيه القريبة الواحدة من الأخرى وشكله الفولاذي الحاد قليلاً. كما كانت حركاته سريعة تعطي انطباعاً أنه في عجلة من أمره دوماً، بالإضافة إلى أنه متحدث بليغ ومقنع، وقد درب ليكون فيلسوفاً وقانونياً.

ولم يكن بابا قبل أسابيع من تكلمه عن الحاجة إلى حملة صليبية جديدة حيث كانت بعض دوافع رغبته الحقيقية في مساعدة المسيحيين في الشرق، ولكن الجزء الأخر منها كان أقل غيرية وإيثاراً. فقد رغب في إعادة تأسيس المملكة اللاتينية والكنيسة في القدس كي تفرض سلطته روما احترامها مرة ثانية هناك، وفوق ذلك، فما من شك أنه أراد أن يجعل الحملة الصليبية الجديدة تحت نفوذه دون غيره، وألا يقوم ملوك أوروبا في نظره، بأي عمل فيها على الإطلاق، إن الحملة الصليبية الوحيدة الناجحة كانت الأولى حيث لم يشارك فيها ملوك، أما الحملة الثانية والثالثة، قد قادها ملوك، ولم يعد منها إلا القليل إلى الوطن. حتى أن هناك مثالاً أخيراً عن عبث الحملات الصليبية التي قادها ملوك. فبعد رحيل الملك ريتشارد عن الممالك الصليبية حشد هنري السادس إمبراطور ألمانيا حملة صليبية خاصة وصلت إلى الأرض المقدسة في أوائل الصيف سنة 1197 لتنهار مباشرة في شهر أيلول عندما مات هنري فجأة واستولى الألمان على صور وصيدا، قبل أن يتفسخ الجيش لدى تلقيهم نبأ موته، ولم يغير ذلك كثيراً من الرأي الرديء والحقير للبابا الجديد عن الحملات الصليبية التي أشرف عليها الملوك.

وهكذا فإن حقيقة أن الزعماء المتوجين في السلطة كانوا في حالة شجار مرة أخرى مما وافق إينوسنت بشكل شديد، فقد كانت تعني أنهم منهمكون كثيراً في الاهتمام بدعوته لحملة صليبية جديدة، ففي إنكلترا ورث الملك جون الذي خلف أخاه ريتشارد في العرش، ورث نزاعاته مع فيليب أوغسطس ملك فرنسا، بينما تورط فيليب صاحب سوابيا في حرب أهلية ضد أوتو أوف برنسويل من أسرة ولف من أجل التاج الإمبراطوري، وبذلك كانت الطريق

واضحة بالنسبة للبابا لتجنيد نوع من الرجال رغب فيهم من أجل حملته في الشرق، وأرسل مبشريه إلى فرنسا وألمانيا لإقناع البارونات لأخذ الصليب، وقد نجحوا ولكن ذلك استغرق وقتاً طويلاً لإعادة تطويع أعداد كافية من الرجال لجعلها حملة ممكنة في الواقع، ورغم حشده جيشاً مناسباً، كانت ثمة مشكلات ينبغي حلها، ففي غياب الملوك ازدادت الحاجة إلى الأموال لدفعها للسفن لتنقل الجيش الجديد إلى الممالك الصليبية، وفيما يتعلق بتدهور القوة البيزنطية فإن الطريق القديمة عبر الأناضول لم تعد مفتوحة، ونظراً إلى أن النبلاء الذين أخذوا الصليب لم يتملكوا أسطولاً من السفن، فقد اضطر الصليبيون للتحول بنظرهم إلى البندقية وعلى الرغم من أن البنادقة كانوا مستعدين لتوفير السفن الضرورية، فإنهم أرادوا كميات كبيرة من المال لقاء ذلك، ولم يعلم أحد من أي مكان يمكن توفيرها، ونظراً إلى أنه ليس هناك من وسيلة، فقد عقدت صفقة معهم خلال صيف سنة 1202، أي بعد تسع سنوات من وفاة صلاح الدين بدأ الجيش الصليبي الجديد بالتجمع في البندقية فوق جزيرة سان نيكولو في الأرخبيل بين مورانو والليدو.

وكان هناك قدر كبير من الجدل حول هدف الحملة الصليبية. فبعض الناس حثوا على القيام بحملة أخرى أيضاً لمساندة الإفرنج في عكا، بينما أراد آخرون أن يهاجم الجيش مصر، فقد بدأ أبناء صلاح الدين بعد موته وهم سبعة عشر شخصاً، بدأوا القتال من أجل ميراثه فدب الفساد في إمبراطورية السلطان القديم، ولم تبقيها طويلاً وحدة الإسلام التي فعلت الكثير لأن تتقدم بسرعة، واعتبرت مصر أضعف نقطة في دفاعات المسلمين، وتم الاتفاق في النهاية على وجوب توجيه المحاولة إلى أرض النيل، ولكن لم يكن البنادقة متحمسين مطلقاً للهجوم على مصر حيث كان سفراؤهم يحاولون أثناء ذلك إجراء مفاوضات لعقد اتفاق تجاري على السلطان وذلك بينما كان الدوج، إنريكو دوندولو Enrico Dandolo يساوم الصليبيين حول كلفة الرحلة رغم أنه لم يخبر بالطبع أن وكلاءه في القاهرة، وكان هذا الدوج رجلاً كبيراً مخادعاً، ومع ذلك

عندما أخبره الصليبيون أنهم آسفون لوضعهم، وليس في إمكانهم دفع المبلغ الكامل من المال الذي وعدوا به، رأى أنها فرصته وتظاهر بأنه غير مسرور على الإطلاق، قائلاً لهم إنه لن يزودهم بأية سفن على الإطلاق ما لم يدفع له المبلغ بالكامل، وهدد بقطع المؤن عن الجيش في سان نيكولو، وكان الصليبيون عاجزين، فأخبرهم أن شروطه لتزويدهم بالسفن أن يساعدوه قبل الإبحار إلى مصر في الاستيلاء على ميناء زارا على الطريق من البحر الأدرياتيكي، وكان البنادقة في حرب مع ملك هنغاريا حيث تقع في أراضيه زارا منذ فترة من الزمن، وبعد أن فقدوا المدينة أرادوا أن يستعيدوها مرة أخرى،و لكن هنغاريا كانت بلداً كاثوليكياً عندما سمع إينوسنت بالمشروع حرمه، وكان هذا رهيباً بالنسبة للصليبيين، ولكنهم لم يكونوا في وضع للنقاش مع الدوج، ولذا وافقوا على القيام بعمل ما سئلوا متجاهلين طلب البابا.

وأبحر الأسطول في الثامن من شهرتشرين الثاني 1202، وتم شن هجوم على زارا بعد يومين، وكان الهنغاريون أقل عدداً من الصليبيين فسقطت المدينة بعد أربعة أيام من القتال الضاري فقط لتسلب من قبل الصليبيين المتنصرين، وفي الوقت الذي الذي انتهوا من نهب وسلب المكان كان الوقت متأخراً من السنة للمغامرة في الإبحار في رحلة طويلة، ومكث الجيش لقضاء الشتاء في المدينة المحتلة، وعندما سمع أينوست بما حدث صعق بالمفاجأة وروعته عدم الإطاعة الصريحة لرجال جملته الصليبية، فحرمهم كنسياً، ولما أخبر بعد فترة قليلة أنه لم يكن لدى الصليبيين خيار آخر في ذلك الشأن عفا عنهم، واستثنى من ذلك البنادقة.

وخلال الشتاء أرسل فيليب أوف سوابيا مبعوثيه إلى الدوج مع اقتراح. فقد كان فيليب قد تزوج في سنة 1197 ابنة الامبراطور البيزنطي إسحق أنجلوس وهي الأميرة إيرين التي كان لها أخ اسمه الكسيوس، وتبين أن الإمبراطور إسحق كان ضعيفاً وغير فعال بشكل يائس، فبعد أن تسامح البيزنطيون معه لفترة عشرة سنوات، لم يكونوا غير مسرورين عندما خلعه

أخوه، وكان يدعى ألكسيوس، عن العرش واغتصبه منه، ورمي به في السجن وجعله يفقد بصره، وفر ابنه من القسطنطينية مع أخته للبحث عن ملجأ، وسأل فيليب أوف سوابيا الدوج فيما إذا سيكون راضياً، قبل الذهاب إلى مصر، بالقيام بالتفاتة مع الجيش الصليبي نحو طريق القسطنطينة، وأن يضع هناك ابن حميه الأمير البيزنطي ألكسيوس على العرش في مكان مغتصب عرشه، وقال إن اللكسيوس سيكون ممتناً لو أن أنريكو دوندولو سيفعل ذلك، وفي الواقع حالما يصبح إمبراطوراً في مكان المغتصب سيدفع للبنادقة المال المدينون به للصليبيين، وسيزودهم بكل ما يحتاجونه في حملتهم ضد مصر، ويضع فرقة طوارئ بيزنطية تحت تصرفهم من أجل الحملة العظيمة ضد المسلمين. وأكد للدوج أن الإمبراطور المغتصب كان غير محبوب بين سكان القسطنطينية إلى درجة أنهم سينهضون في ثورة ضده كهبة رجل واحد حالما يسمعون عن وصول الوريث الشرعي للعرش ألكسيوس بن اسحق أنجلوس.

وابتهج دوندولو الذي أحب المال، وكره البيزنطيين، للفكرة غير أن بعض الصليبيين كانوا بعيدين عن السعادة بفكرة التدخل في شؤون أمة مسيحية أخرى، ورفض قلة منهم الذهاب أكثر من ذلك مع القسم الرئيسي من جيش الحملة الصليبية جاعلين طريقهم نحو الشرق إلى الممالك الصليبية، وأقدمت الأغلبية منهم بفكرة أن البيزنطيين كانوا خونة وغير جديرين بالثقة. فقد وقفوا سداً منيعاً في طريق الصليبيين في الماضي، كما لقنوا أن يعتبروهم بمثابة مسيحيين مرتدين فقط نظراً لأنهم رفضوا الاعتراف بسيادة نفوذ البابا. وفي الواقع منذ الحملة الصليبية الأولى كانت الكراهية ضد البيزنطيين تتعاظم في الغرب. وقد غذاها الحسد لأغنيائهم، وطريقة إغاظتهم التي ازدروا بها المسيحيين الغربيين واعتبروهم كبرابرة، وبنوع الاحتقار الغاضب الذي شعر به أبناء الريف نحو قاطني المدينة المتكبرين والمخنثين، ونضجت الكراهية في شكل بغض وإياءة تفاهم وانعدام الثقة المتبادلة، بالإضافة إلى أن فكرة الانقضاض على القسطنطينة قديمة، فقد فكر فريدريك بربروسا في الانقضاض

على المدينة، وخطط أخيراً هنري السادس من ألمانيا للهجوم عليها، ولكن البابا أثناه بالعدول عن ذلك، ولذا لم تستغرق فترة طويلة بالنسب للدوج والقادة الآخرين في الحملة الصليبية الذين كانوا في صالح تبني اقتراح فيليب أوف سوابيا لإقناع معظم الصفوف والأرتال للموافقة على الخطة الجديدة.

وكان من الصعب إقناع إينوسنت بإعطاء موافقته على ذلك. ولكنه أخبر أن الصليبيين سيضعون ألكسيوس الوريث القانوني في العرش في القسطنطينية، وأن الرجل وعد بإنهاء الانشقاق بين الكنيسة الأرثوذكسية وكنيسة روما حالما يصبح إمبراطوراً، وبدا ذلك حسناً، ولم يعد بإمكان البابا معارضة مثل هذا البرنامج، ولكن مع ذلك بدا أن لديه شكوكاً فيما يتعلق بشيء أكثر من مجرد حملة إلى القسطنطينية، فقد أعلن أنه لن يؤيد أي هجوم على المسيحيين، واصبحت عندئذ خطط الصليبيين تامة، وعندما انضم إليهم ألكسيوس في زارا في أواخر نيسان 1203 أعطي الأمر باعتلاء سفن الأسطول البندقي، وأبحرت قوة الأسطول العظيم.

وسافروا في وجهة جزيرة كورفو حول رأس مايا Malea عند الانحراف الجنوبي من اليونان، ثم شمالاً خلاله بحر ايجه للنزول في جزيرة أندوس التي قاموا بسلبها، ثم شقوا طريقهم شمالاً إلى الدردنيل حيث نزلوا في ميناء أبيدوس على الطرق الساحلي الآسيوي، ومكثوا هناك لفترة أسبوع ليفسحوا المجال من جهة أولى للتائهين منهم بإدراكهم، ومن جهة ثانية لسرقة المحاصيل بما أنها حصدت مؤخراً، وبذلك يستكملون ما نقصهم ويزودون عنابر سفنهم بالطعام لأسابيع القادمة. ووصف غودفري أوف فيلها ردوين، مؤرخ الأحداث الكبيرة للحملة الصليبية الرابعة، رحيل الأسطول في نهاية الأسبوع:

«بدت مضائق القديس جورج إلى الشرق مع الأعداد الكبيرة من السفن الحربية وسفن الشحن والنقل كما لو أنها ناشطة، وفي الواقع كانت تجربة مدهشة أن يرى المرء منظراً رائعاً كهذا، فقد تقدمت السفن في المضائق حتى

وصلت في ليلة القديس يوحنا المعمدان إلى كنيسة القديس ستيفن وهودير على بعد أربعة أو خمسة أميال من القسطنطينية حيث كان يرى منظر المدينة بالكامل من فوق السفن، وهنا دخلت السفن الميناء وألقت مراسيها، وإنه بإمكاني التأكيد على دهشة جميع أولئك الذين لم يشاهدوا القسطنطينية من قبل حين حدقو بإمعان إلى المدينة ولم يتصوروا إلى هناك مكاناً رائعاً مثل هذا في العالم، ولاحظوا أسوارها العالية وأبراجها الشاهقة تحيط بها، وقصورها المترفة، وكنائسها الكبيرة الكثيرة، التي لم يكن بإمكان المرء تصديق أنها حقيقة لو لم يرها بأم عينيه، وينظر إلى اتساع وعرض تلك المدينة التي تفوقت على غيرها، وليس هناك امرؤ في الواقع مهما كان شجاعاً وجريئاً إلى درجة أن جسده لم يرتجف لرؤية هذا المنظر ويدهش له، لأنه لم يقم بمثل هذا المشروع الضخم من قبل أي شعب منذ بدء الخليقة في العالم».

وألقى الأسطول مراسيه بعيداً عن شالسيدون chalcedon في 24 حزيران حيث اتجه العديد من الفرسان إلى الشاطئ، واحتلوا أحد قصور الإمبراطور بينما ضرب آخرون خيامهم فوق أرضه، وفيما بعد ترجل آخرون في كريسوبوليس، ولم يبد مواطنو القسطنطينية أية إشارة عن خروجهم جملة للترحيب بألكسيوس على اعتباره ملكهم الشرعي، أو بالتحول ضد عمه مغتصب العرش الإمبراطوري، كما قادل ألكسيوس الجميع إلى الاعتقاد بأنهم سيرحبون به، وعلى العكس من ذلك، كانت هناك علامات واضحة عن استعدادات عسكرية على الساحل الأوروبي، وتضاءلت الآمال في دخول سلمي إلى المدينة، ولذا بعد مضي أيام من التأخير والاستعدادات هاجم الصليبيون غالاتا Galata في 17 تموز واستولوا عليها دون أية صعوبة تذكر، ثم تقدموا عبر مصب القرن الذهبي، ثم ألقى أسطولهم مراسيه عند أسوار القسطنطينية. وقرر الامبراطور المغتصب أن الحياة الهادئة قريبة إلى ذوقه أكثر من إبداء المقاومة البطولية. وتسلل خلسة وبهدوء مع ابنته المفضلة حاملاً معه ثروة كبيرة منقولة قدر استطاعته، وأخيراً بحث عن لجوء سياسي لدى بلاط

سلطان الروم السلجوقي، وبعد تخلصهم من إمبراطورهم، استعاد ضباط القصر الإمبراطور المنفي الأعمى والضعيف اسحق أنجلوس من سجنه وقلدوه العرش مرة ثانية، وحالما قبض على وضعه الجديد أرسلوا رسالة إلى ابنه ألكسيوس أنه يستطيع إيقاف القتال، وفوجئ ألكسيوس تماماً ولم يعرف كيف يتصرف ولكن الصليبيين عرفوا كيف فقد ردوا بالجواب أنهم سيوقفون القتال حالما يصبح ألكسيوس إمبراطوراً شريكاً مع والده، ولكن ليس قبل بذلك، ووافق بحكم الحاجة والظروف، البيزنطيون الذين لم يكونوا في وضع للمناقشة والجدل، وفي الأول من شهر آب توج الشاب كما ينبغي باسم ألكسيوس الرابع أنجلوس في كنيسة آياصوفيا بينما كان القادة الصليبيون يراقبون الوضع.

وبعد أن قاموا بما أتوا من أجله ظاهرياً كان في إمكانهم الرحيل عند تلك النقطة، لولا أنهم احتجوا بالوعود التي قطعها ألكسيوس، ولإنصافه فقد حاول الوفاء بها، ولكن سرعان ما اكتشفت أن الالتزام بكلمته كان أصعب كثيراً من إعطائها، وأمر رجال الدين بالاعتراف بسيادة البابا، وعندما رفضوا لم يكن هناك من سبيل غير اللجوء إلى الضغط عليهم لإطاعته، وحاول جمع الأموال التي كان قد وعد بها البنادقة ولكن لم يكن في خزينة الإمبراطورية أموال كافية لسد ديونه، واضطر أن يطلب إلى الدوج أن ينتظر لفترة من الوقت بينما يتمكن من جمع المال عن طريق فرض ضرائب إضافية، أما فيما يتعلق بجيش من الجنود البيزنطيين كان قد وعد به للمساعدة على غزو مصر، فإنه حتى لو وجد رجالاً مدربين بشكل كاف في تلك اللحظة فإن إخلاصهم لن يكون مؤكداً إلى درجة أن الصليبيين سيبدون حمقى لأخذ هؤلاء معهم، وبالطبع فإن إخفاق ألكسيوس في الالتزام بوعده قد قلل من تحببه إلى الصليبيين الذين ضاقوا بازدياد منه، ولم يكن ضيقهم يعد شيئاً بالنسبة إلى الكراهية التي كسبها عند شعب القسطنطينية الذي كان تكريسه للبابا، بالإضافة إلى سياسة ألكسيوس المؤيدة للغرب وسياسة فرض الضرائب الجديدة المعادية لهم جعله عندهم شخصاً ملعوناً وبغيضاً، ولكن استياءهم من الصليبيين الذين

عسكروا خارج المدينة تماماً كان الشيء الوحيد الذي تجاوز مقتهم للامبراطور الجديد حيث جعلت زمر البنادقة والفرنسيين السكارى الوضع صعباً بل مستحيلاً تقريباً بالنسبة لنسوة القسطنطينية في أن يغامرن في الخروج إلى الشوارع، والسير فيها بحيث لم يبق حانوت أو سوق آمن من أيديهم السارقة، وفي مجال الكراهية الدينية قام بعض الصليبيين بإحراق جامع بني للزوار المسلمين، وقد دمرت النيران التي خرجت عن سيطرتهم حياً كاملاً في المدينة، وتصاعد التوتر في المدينة كثيراً إلى درجة خطيرة وثار الشعب بعنف في شهر شباط، وخلع ألكسيوس الملعون وشنقه، واستولى أحد النبلاء واسمه موزر وفلس على العرش، وقد اشتهر بميوله المناهضة للغرب وأنقذ الإمبراطور القديم اسحق أنجلوس من المتمردين ومن قتله من قبلهم بإماتته ببطء في الحزن في السجن الذي رمي فيه مرة أخرى.

واتضح أن الثورة استهدفت ألكسيوس والصليبيين الذين أتوا به إلى المدينة ووضعوه على العرش بالقوة، لقد كان تمرداً مناهضاً للاتينية والغرب والبابا، ولم يكن لدى الصليبيين نية في السماح لها بالنجاح، بل كان هناك كلام لفترة عن الرغبة عن تعيين أحدهم على العرش الإمبراطوري، وعن تقسيم الإمبراطورية البيزنطية بينهم، وبدا مثل هذا الإجراء بعد خلع ألكسيوس وقتله ليس مرغوباً فيه فحسب، بل ضرورياً، ذلك أنهم لم يقدموا جميعاً في تلك الطريقة ليروا إحباط خططهم بثورة في القصر ساندها رعاع المدينة، وقرروا الهجوم على المكان بالقوة. ووصف ذلك غودفري أوف فيلها رودين:

ففي يوم الخميس بعد أحد الصوم الكبير (أي 5 نيسان 1204) ركبت جميع القوات السفن. وأستطيع أن أؤكد لك ـ عزيزي القارئ ـ أن منظر الأسطول وهو يتخذ تشكيل المعركة في نسق متسع من طرف الحلف الفرنسي كان رائعاً، وفي صباح الجمعة، اقتربت السفن الحربية وسفن النقل والمراكب الأخرى إلى المدينة في ترتيب مناسب، وبدأت في شن انقضاض عنيف ومحدد، ونزل الصليبيون إلى البر في عدة أماكن وتقدموا إلى الأسوار كما

قربت سلالم التسلق فوق السفن إلى أماكن أخرى عند الشرفات فوق الأسوار، وتصالبت الرماح والأبراج بإحكام، واستمر الهجوم في السرعة وبشكل متلاحق في أكثر من مائة مكان حتى حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، ولسوء الحظ فإن قواتنا ردت في ذلك الهجوم، أما أولئك الذين هبطوا من السفن والناقلات فقد تقهقروا إلى السفن مرة ثانية، وينبغي أن أعترف أن جيشنا في ذلك اليوم خسر كثيراً، الأمر الذي أبهج الأغريق كثيراً».

وكانت المعركة نكسة خطيرة ولكن خسائر الصليبيين لم تكن خطيرة كي تعوق القيام بهجوم آخر، وبعد ستة أيام عادوا إلى الهجوم مرة أخرى، وكان هدفهم خرق السور البحري حيث ينخفض إلى حافة المياه عند القرن الذهبي قرب حي المدينة المعروف بلاشيرنة، وسرعان ما أدرك البيزنطيون ما حاول هؤلاء القيام بعمله، وكنت قبلها ردوين «كان خوف سكان القسطنطينية عندئذٍ أقل من خوف قواتنا في وقت هجومنا الأول، وفي الحقيقة كانوا في حالة ثقة كاملة بحيث لم يكن يرى على طول الأسوار، فوق الأبراج غير الناس، ثم بدأ هجوم عنيف وضخم حينما تقدمت كل سفينة نحو هدفها مباشرة، وأحدثت الصرخات الصاعدة في جو المعركة جلبة قوية إلى درجة بدت كما لو أن الأرض كلها تزلزل لتتحطم على شكل قطع صغيرة.

لم تكن كل الأشياء في صالح الصليبيين حيث قذف البيزنطيون بمراكبهم المسلحة، وقاتلوا من أجل منعهم من الوصول إلى الأسوار، غير أن القدر والرياح كانت ضد المدافعين».

وتابع فيلها ردوين روايته: «واستمر الهجوم لفترة لا بأس بها، عندما سيطر قائدنا على جهة دعيت بورياس Boreas التي جعلت السفن تندفع أكثر إلى الشط، وتقدمت سفينتان مترافقتان معاً دعيت الأولى (الحج) والثانية (الجنة) قريباً إلى برجين على الطرفين، وعندما ساقهما الرب والرياح إلى الأمام حتى ارتبط سلم سفينة الحج بالبرج، شق على الفور رجل بندقي برفقة فارس فرنسي دعي أندرو دوربوا طريقهما إلى الداخل، وبدأ بقية الرجال

باتباعهما، وفي النهاية هزم المدافعون هزيمة منكرة وطردوا بسرعة رأى فيها الفرسان فوق سفن النقل ما حدث، فترجلوا ورفعوا السلالم إلى الأسوار وصعدوا واستولوا على أربعة أبراج أخرى، ثم شرعت بقية القوات بالقفز خارج السفن وسفن النقل والمراكب في فوضى وسرعة، وحطموا ثلاث بوابات ودخلوا المدينة.

وتدفق الجيش إلى الداخل على الرغم من أنه لم يكن هناك قتال في الشوارع والساحات، وما أن اخترقت الأسوار الخارجية حتى انهارت مقاومة البيزنطيين، ومع المساء أصبحت القسنطيطينية في أيدي الصليبيين، وفر مورزوفلس والقادة الإغريق الآخرين، وانتصر البنادقة والفرنسيون».

وفي اليوم التالي بدأت مذبحة تجل عن الوصف، ففي فترة ثلاثة أيام تجول عشرون ألف رجل مسلح في عصابات وهم ثملون وفاقدوا السيطرة تماماً يسلبون وينهبون ويقتلون حيثما توجهوا بحيث عم الدمار الكبير، فلقرون سبقت جلبت أعمال الفن من جميع أنحاء العالم إلى القسطنطينية واكتنزت فيها حيث كان يندهش الزوار بروعة المكان وجماله، وخلال نهب المدينة سرقت مفاخر تاجية عديدة منها من قبل البنادقة. ودمر الفرنسيون أكثرها حيث كانوا في حالة مزاج للقيام بأعمال عنف وتدمير، كما سرق الكهنة الكنائس، وهدد رئيس الرهبان البندكتيني مارتن أوف بايرس في الألزاس بقتل كاهن إغريقي في كنيسة في بانتو كراتو ما لم يُره مكان الآثار المقدسة، وعندما دل عليهم شمر عن ساعديه وملأ غفارته (رداء الكاهن) بأجزاء من الصلب الحقيقي، أو رسم دم المسيح وهو جزء كبير من ذراع القديس جون والذراع الكاملة للقديس جيمس، وقدم القديس كوزمس وسن للقديس لورنس وقطع وبقايا لثمانية وعشرين قديساً وثماني قديسات نقلها جميعاً في فرحة انتصار، وفي كنيسة أيا صوفيا العظيمة مزق الجنود الستائر الحريرية ونزعوا الفضة عن الحاجز الأيقوني، وشربوا السائل الكحولي من الأوعية المقدسة في المذبح، وأجلسوا مومساً فوق عرش البطريرك حيث غنت أغنيات فرنسية فاحشة، بينما أدخل

آخرون خيولهم وبغالهم إلى الداخل لتبول وتتغوط فوق أرضها، أما في الشوارع فلم يوفروا أحداً، فجردت الراهبات وعربن من ملابسهن، وانتهكت اعراضهن، وأجبرت النساء والفتيات على البغاء والفحش بشكل لا يوصف، وحطمت رؤوس الأطفال مثل قشور البيض في ضربها على الجدران وضربها بأعقاب أحذية الجنود، وسعرت النيران التي أوقدت في أنحاء شتى من المدينة دون السيطرة عليها لتملأ أجواء جميع الضواحي بالدخان والسواد، وتركوها تختنقهم بين الأنقاض، وكتب مؤرخ الأحداث البيزنطي نيستاس الذي أنقذت حياته من قبل صديق بندقي، مرثاة حول سقوط المدينة، فيها اشتكى بمرارة من أن المسلمين كانوا أرحم من هؤلاء الرجال القادمين من الغرب، الذين يدعون بكونهم مسيحيين، إلا أن فيلها ردوين ينهي وصفه حول الاستيلاء ونهب المدينة بمصداقيته الكاملة بوصفه مدى ابتهاد الجميع بنصرهم وفرحهم بالغنائم والأموال التي كسبوها حيث كتب: «ابتهج الجميع كثيراً وقدموا شكرهم لربنا للشرف والانتصار اللذين منحهم إياهما، وبذلك عاش أولئك الذين كانوا فقراء في غنى وترف، واحتفلوا بأحد السعف وعيد الفصح وقلوبهم مليئة بالفرح لما أسبغ عليهم الرب والمخلص من مساعدة».

ولم يبق غير شيء واحد هو الاستحواذ على الجسم المريض للامبراطورية البيزنطية واقتسامها بين المنتصرين، وضمن البنادقة الذين كانوا أكثر مكراً وخداعاً من الفرنسيين، حصة الأسد فيها ونصب رجل فرنسي دعي بلدوين أوف فلاندرز امبراطوراً، وتوج في كنسية أيا صوفيا وفق الطقوس اللاتينية في 16 أيار 1204، لكي تتويجه هذا لم يمنحه غير صورة شكلية كاذبة للسلطة التي تمتع بها أيضاً سابقوه البيزنطيون، وخضعت اليونان ومعظم البلاد الأوروبية في الإمبراطورية البيزنطية للبنادقة أو النبلاء الفرنسيين الذين حكموها في استقلال فعلي عن الإمبراطور الذي سمح له أن يحتفظ بمنطقة تراقية ويبقيها تحت نفوذه الشخصي بينما كان الجزء الأكبر من الأناضول في أيدي السلاجقة، ورغم أن البيزنطيين فقدوا القسطنطينية فقد صمدوا ضد الصليبيين

في مركزين للمقاومة في جهة الشرق، ففي طرابزون وطد الكسيوس كوفينوس وأخوه اللذين كانا حفيدين للامبراطور غير المحبوب وغير المحظوظ اندرونيكس، وطدا نفسيهما في الساحل الجنوبي من البحر الأسود حيث أسسا دولة حاكمة دامت ثلاثة أمثال الفترة التي ظهرت فيها الامبراطورية اللاتينية المقلقلة التي أقامها الصليبيون في العاصمة، في حين أقامت ابنة الكسيوس الثالث العم المغتصب المحمي من الصليبيين، مع زوجها بلاط مملكة لمت شعث القادة البيزنطيين الذين دانوا لها بالاحترام كمركز حقيقي للامبراطورية حتى تتحرر القسطنطينية.

وجن جنون الجميع في الغرب عندما وصلت أبناء انتصار الصليبيين إلى هناك، حتى أن اينوسنت الذي كان قد حرم كنسيا البنادقة للهجوم على زارا سمع بسقوط عاصمة العالم البيزنطي برضى تام، لأنه كان يعني اتساع رقعة نفوذه الديني كخليفة للقديس بطرس على جميع الكنائس الغربية المنشقة، وكتب رسالة حماسية ملؤها التهنئة إلى الامبراطور الجديد بلدوين، منح فيها استحسانه وتأييده التأمين لكل ما قاموا، وعندما سمع البيزنطيون باستحسان البابا ذلك، لم يعرف شعورهم المر حداً يقف عنده، وانصافاً له، فقد ارتاع عندما وصلته أنباء نهب المدينة ووحشية الصليبيين ولكن في ذلك الوقت تم الدماء، وسمع قلة من البيزنطين ـ إذا كان ثمة من أحد ـ بأفكار البابا الثانية.

وكان البيزنطيون يكرهون الإفرنج ويحتقرونهم كبرابرة قادرين على القيام بجميع الأعمال الوحشية والحقيرة، وقد اعتقدوا تماماً على سبيل المثال أنهم «كانوا ينصرون أطفالهم بنبات القصعين (الناعمة) ويأكلون لحم الذئاب، ويشربون بولهاويغسلون سراويلهم المتسخة في قدور الطبخ». ولكن عندما وصل البيزنطيون إلى الاعتقاد أن البابا قد منحهم بركاته لقيامهم بسلب مدينتهم وبتنفيذهم مذبحة في حق سكانها، اتخذ بغضهم للغرب بعداً جديداً دامت عواقبه لعدة قرون.